

«بس يا بحر» فيلم كويتي يدعش العالم منذ خمسين عاما

شاعرية أسرة وتقنية إخراجية تسبق عصرها



أول فيلم وثائقي تراشي

بس يا بحر

تأليف: عبد الرحمن الصالح

إخراج: خالد الصديق

الكويت.. البحر قبل النفط

الجوائز التي نالها الفيلم:

- حصل على تسع جوائز على مستوى العالم ومن ضمنها: الجائزة الأولى، مهرجان دمشق السينمائي، 1972.
- جائزة الشرف، مهرجان طهران الدولي، 1972.
- جائزة النقد الدولي، مهرجان فينيسيا الدولي، 1972.
- جائزة الاختيار "الأسد الفضي"، مهرجان فينيسيا الدولي، 1972.
- جائزة "هوغو الفضي"، مهرجان شيكاغو العالمي، 1972.
- الفيلم حصل على هذا الكم من الجوائز، والجدير بالذكر أنه بعد مرور ما يقارب نصف القرن، ما زال يعرض ويتم تكريم القائمين عليه ما بين فترة وأخرى.
- وتحدث المؤرخ سيف مرزوق الشعلان، في كتابه عن فيلم "بس يا بحر"، قائلاً "هو أول فيلم في تاريخ الكويت تم إنتاجه وعرضه في الكويت، وتدور أحداثه عن الغوص، وتم عرضه في دور السينما في الكويت ودول المنطقة، وحاز الفيلم على جوائز عديدة".

لدراسة أنثروبولوجية لبيئة الكويت قبل النفط، وأظن أن الفيلم هو المادة الوحيدة المرئية الموجودة في العالم عن الكويت قبل اكتشاف البترول، متابعاً أنه "يعرض جميع الجوانب الحياتية قبل دخول عامل النفط بما في ذلك الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبيئية".



البحر من أمامكم

أبوإبراهيم: عيزت وأنا أطلع، ماني شاف شي.
أبومساعد: يا أبوإبراهيم أنا أطلع هاي المويه، شوفها كيف تنبس لي لأني عارف أسرارها وخفاياها.

أبوإبراهيم مستغرباً: هاه؟

أبومساعد: قصدي إن ورا كل ها السكوت والابتسامه في طمع وبخل وعناد.

أبوإبراهيم: بس يا بومساعد، البحر كل أهل الكويت عاشين من وراه، إنت وأنا وغيري وغيرك، والبحر كريم. أبومساعد (وملامح الإنكسار بادية عليه): كريم للضعيف والصبور، أنت تنتظر ساعات وساعات بشبكتك هاذي، يا الله تعطيك سمجة ولا اسمجتين، أما الناس اللي مثلي، اللي يلقط ويأخذ بيده اللي بيبي، بعانده البحر ويصارعه ويحطمه، حتى ما يخذ منه كل شي. تظهر "تبتترات" الفيلم وأسماء المشاركين فيه من ممثلين وتقنيين مع صوت إيقاعات بحرية متواصلة.

أما مخرج الفيلم ومنتجه خالد الصديق، فيشرح ظروف إنتاج الفيلم في إحدى المقابلات التلفزيونية قائلاً "أحببت من خلال هذا الفيلم أن أبين للعالم كفاح الشعب الكويتي والخليجي ضد الطبيعة والطبيعة في البحر عندما- لا بين حياتهم (حياة أفراد هذا الشعب) القاسية قبل اكتشاف النفط". ويستطرد قائلاً "ومع أن هذه العملية كان لها نوع من المجازفة، لكن الاتفاق والحماض وجنون السينما أيام الشباب جعلتني أنسى كل هذه الجوانب الخطرة".

ويضيف المخرج "أظن أن بالإمكان اعتباره صالحاً كمرجع سينمائي

مضيقاً أنه "فيلم الهوامش والمساحات الصغيرة.. فيلم الذين يعتقدون أن وراه هذه الحياة حياة تليق بأرواحهم النواقة إلى المغامرة".

يحبس المتفرد أنه ليس إزاء فيلم روائي عادي الكتابة وتقني الإخراج، بل إنه استفناني في التمثيل والتصوير وزوايا الطرح والمعالجة، والأكثر إدهاشاً من كل هذا أنه أنجز في بدايات السبعينات من القرن الماضي.

يرى نقاد ومتابعون أن هذا العمل السينمائي المتميز ليس غريباً عن المخرج الكويتي، خالد الصديق، صانع الفيلم، وهو الذي تلقى تعليمه الثانوي بالهند، وفي هذه الأثناء تدرّب في التصوير السينمائي ببومباي، ثم واصل دراساته وتدريباته السينمائية في الولايات المتحدة، وإيطاليا، وحصل على درجة الزمالة من جامعة سانت ماري، وذلك لإسهاماته البارزة، وقام بتمويل وإنتاج وإخراج العديد من الأفلام الروائية الطويلة والأفلام القصيرة، كما أعد عدة سيناريوهات بالبريكية والإنكليزية.

عنوان الفيلم يوحي بشاعرية هائلة، ويذكر بقدره على العفوان، ألا توجد صرخة غضب في وجه البحر أبلغ من كلمة "بس يا بحر"؟

فيلم يتذكره كل الذين أحبوا السينما العربية وراهنوا عليها، شنوا الرجال إليها، وأمنوا بان على هذه الحياة "حياة أجمل" في هذه البقعة الضيقة من العالم، تلك هي وظيفة السينما، وبشهادة من كبار عشاقها ومحترفيها.

وفي هذا الصدد يقول المخرج خالد الصديق عن فيلمه إنه "تعبير عن فترة الجنون والغبوبية، حتى أن المشاهد المصورة تحت الماء أحدثت خوفاً وقلقاً في نفس مؤلف الفيلم عبدالرحمن الصالح، الذي ظل يتساءل عن كيفية كتابة عمل تجري أحداثه تحت الماء، وكيفية تنفيذ تلك المشاهد. ثم يضيف الصديق "وكانت مشكلتي الأساسية مع المؤلف هي إقناعه بأن يكتب ما يدور في خياله، ويترك مسؤولية التنفيذ لي، وكان يشاركني في إقناعه مدير التصوير توفيق الأمير".

إنه فيلم "الغوص بالسبات وفي الذات" كما يقول أحد النقاد المحجبن بهذا الشريط الأسر، والذي يشكل علامة فارقة في تاريخ السينما الخليجية، والعربية عموماً.

يرد رفيقه (أبومساعد) -الفنان سعد الفرج- وعليه ملامح حزن: اللي أطلعته ما تشوفه إنت.

"بس يا بحر" شريط، ما زال عالقا في ذاكرة عشاق الفن السابع، أنتج عام 1972، وهو كويتي ترشح للمنافسة ضمن فئة أفضل فيلم أجنبي في الدورة الخامسة والأربعين لجوائز الأوسكار، ونال إعجاب من كان يظن من النقاد أن السينما دخيلة على الخليج العربي، وتتلهم وجودها الآن باحتشام، بعد الطفرة النفطية وبوادر الانفتاح الثقافي والاجتماعي.

حياة صيادي اللؤلؤ، هي الثيمة الأساسية التي يمكن أن يؤسس عليها أي عمل فني خليجي، بروم التأصيل لثقافة المنطقة بغية القول "إننا لسنا كأنثا بتروولية".

الشريط واحد من الأعمال النادرة التي قالت "بس" للقراءات السطحية قبل ظهور البترول، وما زالت تذكر جمهور السينما بأن الخليج يعج بحكايات لأناس أودعوا سرهم للبحر وحده كفضاء للعيش والأمل والخيبات، ويذكر بروائع أدب إرنست هيمغواي، ونيكوس كازنتزاكي، وكذلك حنا مينة، في مقارباته بين البحر وأمزجة شخصياته.

حكيم مرزوقي
كاتب تونسبي

مئة دقيقة تحبس الأنفاس في فيلم "بس يا بحر"، كتبها عبدالرحمن الصالح، وأخرجها خالد الصديق، ومثل فيها كل من محمد المنصور (في دور صياد لؤلؤ اسمه مساعد) وأمل باقر (في دور محبوبية مساعد نورا).

إضافة إلى مجموعة أخرى من الممثلين من الكويت التي كانت سباقاً لتأسيس أهم معاهد الفنون الدرامية في المنطقة، واستقدمت كبار المخرجين والمدرسين العرب في مرحلة مبكرة، تحسداً عليها دول الجوار. قصة الفيلم تعطي الانطباع منذ البدايات، أن البحر "شخصية أساسية" من صناع الحدث في الحكاية، ذلك أنه "كريم ومعطاء"، ويقدم السمك واللؤلؤ والمتعة وحب الأسئلة.

تحولات درامية مربعة، تجعل من هذا "الكائن الكلي الأزرق" يغير مزاجه، وينقلب على عشاقه، ويصعب التعامل معه حين يتحول إلى وحش مفترس، وإلى حوت شرس يتلعن من جاعوا يصيدون في قفصره فتتحول الأدوار وتتبدل، يحقد البحر على "مريديه"، ويمتنع عن كشف أسرار، ويبدأ بالتهايم أبنائه دون سبب واضح. ما أراد أن يقوله الشريط هو أن الإقتراب من البحر -لدى الغواصين في بحر الكويت- له أسرار وطوقسه لدى عتاة البحارة، و"محتري الحوار" معه. إنه وحش ويصعب وصديق شرس فما أعرب أن تصادق وحشاً لأجل العيش، ولكن ليس من صدقاته بديء وما معني أن تغضب عينيك وتحبس أنفاسك، ولا تتبالي بالذي سوف يأتي من بحر قد يكون أنيساً أو غداراً. كل ذلك لأجل اللؤلؤ في بعديه الواقعي والرمزي، ومن أجل التعايش مع هذا الجار الزمن.

المقاربة بين البحر وعشاقه في هذا الفيلم الكويتي الأسر، تتجلى في تلك الحوارية المرعبة بين اليابسة والماء، بين ما يجري في أعماق الماء، وما يجري في أعماق النفس البشرية.

ومثل الإبحار في بيم غير محمود العواقب، يحاول "أبوإبراهيم" أن يجبر ابنته على زواج لا تشتهيته، ويتجر الفتاة المتهورة مثل مركب لا يعلم وجهته بعد قهر وتعنيف، وكثير من الترهيب.

تمتد عملية المزاجية بين البحر واليابسة في كون الزواج بالإكراه يشبه التجديف عكس التيار، والبحر هنا، هو سيد الموقف في شريط يقول "لا" فما أصعب أن يقول عربي "لا" في بداية سبعينات القرن الماضي، وما أقوى وأخطر كلمة "لا" في تلك المرحلة.

مضى الفيلم الكويتي الغاضب في ملامسة قضايا شبيهة محظورة، إلى حد اتهامه بالجرأة الزائدة على اللزوم، ذلك أنه طرح موضوعاً في غاية الحساسية داخل مجتمع محافظ، وضمن شعاب درامية، يصعب أن تقرأ بسهولة أو براءة داخل مجموعة عربية تحكمها تقاليد صارمة.

ليس سهلاً أن تقول "بس" في بدايات سبعينات القرن الماضي لبحر من التناقضات والأوجاع، والأحلام المستباحة. هذا ما قاله فيلم "بس يا بحر" الذي يمثل صرخة بحار غاضب يجذف عكس التيار. في الشريط هناك حكاية تجر خلفها حكاية، وتخفيها في

